# الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي

الدكتور عبد المنعم رشاد

على كثرة ما يحدثنا به التاريخ عن الغزاة العديدين والفاتحين العظام فانه لا يذكر امة غازية اثارت الرعب والخوف في جميع انحاء العالم المعروف آنذاك ما اثاره المغول في زحفهم السريع الذي اكتسح بفترة وجيزة من الزمن معظم آسيا واجزاء من اوربا الشرقية . والمقالة التالية . في حقيقتها . ما هي الا عرض موجز لهذا الرعب والخوف الذي هيمن على نفوس الناس — آنذاك — ممثلا بما دونه المؤرخون المعاصرون لاحداث هذا الغزو وكذلك المؤرخون الذين اتوا بعده .

لم يقتصر هذا الرعب الذي اثاره المغول على العالم الاسلامي فحسب حيث ابتلعوا معظم اجزائه في آسيا وحطموا واحتلوا اكبر مدنه وعواصمه . بل تعدى ذلك الى اوربا الغربية . ناهيك عن الشرقية حيث وصلوا بغزواتهم وتخريبهم المجر وبولندا .

ولسنا . هنا . بصدد تاريخ الغزو المغولي اذ انه قد بحث بتفصيل في مجلدات عدة ولكننا سنعالج اساليب الغزو المغولي للبلاد الاسلامية في اواسط آسيا لنرى ما سبب رعب الناس منهم . وهل ان لهذا الرعب ما يبرره ام انه كان فقط رعباً نابعاً من اذهان المؤرخين الذين دونوا الاحداث . ودونوا اخبار هذا الخوف والرعب ؟

كانت القبائل المغولية قبائل رعوية استطاع تموجين — الملقب بجنكيز خان[١] — توحيدها عام ١٢٠٦ م بعد ان تم انتصاره على زعماء هذه القبائل ولقب

---

[١] انظر حياة جنكيز خان في كتاب :

Ralph Fox, Genghis Khan, London, 1936.

جنكيزخان محرف من الكلمة الصينية «شنك سز» ومعناها : ابن السماء وبعد ان تم له هذا التوحيد وجه قواه الى محاربة الامبراطورية الصينية عام ١٢١١ واستطاع ان يقضي عليها ويحتل بكين في عام ١٢١٥م . وقد ارتكب كثيراً من الفظائع والمجازر في الصين . وخاصة ما ارتكبه في العاصمة حيث يقال ان ٦٠.٠٠٠ فتاة رمين انفسهن من اسوار العاصمة حتى لا يقعن اسرى في ايدي الغزاة «٢» . وفي الوقت الذي كان فيه جنكيزخان مقيماً في العاصمة الصينية وصله وفد ارسله السلطان محمد خوارزمشاه للتفاوض مع المغول وكان ملحقاً بالوفد تجار مسلمون وقد اساء احدهم في طلب اثمان عالية لبضائعه مما اثار حفيظة الخان فأهانهم ثم ارجعهم الى بلادهم بسلام . الا ان الوفد جلب معه اخبار الفظائع التي ارتكبها المغول في الصين . وفي عام ١٢١٦ عاد جنكيزخان الى منغوليا ،وردا على هذا الوفد الذي ارسله السلطان محمد خوارزمشاه للاطلاع على احوال المغول والتجسس عليهم ارسل جنكيزخان وفداً الى السلطان ومع الوفد تجار . وكان الوفد يحمل كثيراً من الهدايا للسلطان . وفي عام ١٢١٨م استقبل خوارزمشاه الوفد وبعد مباحثات قصيرة وافق السلطان على عقد معاهدة صلح مع المغول وقد سر جنكيزخان من هذه المعاهدة «٣» الا ان سروره كان قصير الامد .اذ سرعان ما حدثت فاجعة اترار في نفس العام . فقد ارسل المغول الى الغرب قافلة تجارية مكونة من ٤٥٠ رجلا ومعهم ٥٠٠ جمل محملة بالبضائع الثمينة وقد حجزت هذه القافلة في مدينة اترار من حاكم المدينة اينالجك -الملقب غايرخان- ويقال: ان السلطان محمد هو الذي امر بحجز القافلة دون استشارة احد فأمر الحاكم بذبح جميع رجال القافلة ومصادرة اموالهم وباعها الى تجار بخارى وسمرقند «٤».

---

«٢» انظر : W. Barthold, Turkestan Down to the Mongol Invasion, London 1958 P. 394

«٣» Barthold, PP. 396 ff. . انظر كذلك النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين منكوبرني ص ٥٩ — ٦٠ ، تحقيق هوراس ، باريس ١٨٩١ .

«٤» Barthold , PP.398-9 .

وعندما بلغت اخبار هذه الفاجعة مسامع جنكيزخان استاء منها جداً الا انه اظهر سيطرة على اعصابه . فأرسل رسولا يطلب من خوارزمشاه ان يسلمه اينالجك لما قام به من عمل عدواني ضد الخان وضد المعاهدة القائمة بينهما الا ان خوارزمشاه رفض ذلك وقام بعمل زاد في تأزم الوضع . فقد امر بقتل رسول الخان وحلق لحى الوفد المرافق له . وهكذا اصبحت الحرب بين الامبراطوريتين – المغولية والخوارزمشاهية – امراً لا مفر منه .

وقد قام جنكيزخان بتهيئة اسباب الحرب فجمع جيشاً ضخماً لمهاجمة خوارزمشاه . وبدأ هجومه على مدينة اترار عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م وبعد حصار دام ما يقرب من ستة اشهر احتلها وانتقم منها انتقاماً هائلا ثم توغل في امبراطورية الخوارزمشاهيين . واحتل بخارى وسمرقند وعبر نهر سيحون واحتل نيسابور . واستطاع جنكيزخان . بغزوة وجيزة لا تزيد عن السنة : ان يقضي على امبراطورية محمد خوارزمشاه وان يحتلها ويضعها تحت حكمه «٥» . وقد مات السلطان محمد في اواخر عام ٦١٧ هـ شريداً في جزيرة ابكسون . وهي جزيرة صغيرة في بحر قزوين كان قد التجأ اليها هرباً من تتبع جيوش المغول له «٦» . وقد ارتعب العالم الاسلامي من هذا الذي بدأه جنكيزخان على حدود بلاد الاسلام والفظائع التي ارتكبها في مدن بخارى وسمرقند . . . الخ .

نعم . لقد كان الرعب والتشاؤم والخوف مبرر قوي . وخاصة بعد ان بدأ المغول بالاستيلاء على بلاد الاسلام . اذ انها المرة الاولى في تاريخ الاسلام التي سيطر على المسلمين فيها حكام وسادة لا يدينون بالاسلام او بأي دين سماوي اخر .

---

٥ – Barthold, PP. 403. ff. . ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٣٤ ، ط . Derenbelg
وانظر سبط ابن الجوزي ج ٨ ص ٥٠١ . ط . Jewett .

٦ – Barthold, PP. 426. . رشيد الدين . جامع التواريخ ج ٢ ق ١ ص ٢٧٦ الترجمة العربية . وانظر ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٤٥ — ٩

فقد سمت العامة سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩ – ١٢٢٠ اي السنة التي بدأ فيها المغول بالهجوم على العالم الاسلامي : السنة المشؤومة «٧». ويقول ابو الفداء عن هذه السنة :

« ولم ينكب المسلمون بأعظم مما نكبوا في هذه السنة . فمن ذلك ما كان من تمكن الفرنج من ملك دمياط وقتلهم واسرهم.ومنه المصيبة الكبرى وهو ظهور التتر وتملكهم في المدة القريبة اكثر بلاد الاسلام وسفك دمائهم وسبي حريمهم وذراريهم . ولم يفجع المسلمون . منذ ظهور الاسلام . بمثل هذه الفجيعة «٨».

اما تفجع ابن الاثير المعاصر لهذه الاحداث فقد وصل القمة من حيث البلاغة ووصف شعور المسلمين من هذا الخطب الجلل . فقد ذكر كثيراً من المآسي والفظائع التي ارتكبها المغول بحق المسلمين والتي ادت الى خلق موجة من الرعب بين المسلمين لا يمكن تصورها. فيقول :

« لقد بقيت سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استفظاعاً لها . كارهاً لذكرها فأنا اقدم اليه رجلا واؤخر اخرى، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت امي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا . الى ان حثني جماعة الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الايام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل : ان العالم مذ خلق الله – سبحانه وتعالى – ادم الى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً . فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن اعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل والتخريب للبيت المقدس . وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها

---

«٧» المنشي النسوي ص ٩ .

«٨» ابو الفداء ، مختصر تاريخ البشر ج ٣ ص ١٢٩ . ط . القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

اضعاف البيت المقدس و ما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فان اهل مدينة واحدة ممن قتلوا اكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لا يرى مثل هذه الحادثة الى ان ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا ياجوج وما جوج واما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على احد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسادت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح » . . . الخ « ٩ »

ثم يتكلم ابن الاثير عن سرعة تقدمهم وفتحهم للبلاد فيقول : «... وهؤلاء قد ملكوا اكثر المعمور من الارض واحسنه واكثره عمارة واهلا واعدل اهل الارض اخلاقا وسيرة في نحو سنة ولم يبت احد من البلاد التي لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويرقب وصولهم اليه ... » «١٠» .

اما الموفق عبد اللطيف البغدادي فيقول عن خبر خروج المغول : «... وهو حديث يأكل الاحاديث وخبر يطوي الاخبار وتاريخ ينسي التواريخ ونازلة تصغر كل نازلة وفادحة تطبق الارض وتملؤها ما بين الطول والعرض ... » «١١» .

وقد اتبع المغول اساليب جديدة لم يعهدها المسلمون من قبل في حروبهم . كما انهم مارسوا القوة باجلى مظاهرها والعنف الشديد في فتوحاتهم . فلم يكونوا ليحترموا عهدا يقطعونه على انفسهم . كما ان جميع اساليب اظهار الخضوع من المقهورين ما كانت لتجدى نفعا لدى هؤلاء القساة . فكم من مدينة اعطوا اهلها الامان على ارواحهم ثم نكلوا بهم وابادوهم . والامثلة التالية تظهر مدى قسوة هؤلاء القوم في عهد جنكيزخان او فيما تلاه من عهود الغزو المغولي .

في ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م اوائل المحرم . عندما حاصر جنكيزخان مدينة بخارى

---

«٩» ابن الاثير . الكامل ج ١٢ ص ٢٢٣ ــ ٤ . ط . ليدن .

«١٠» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٢٥ .

«١١» الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٢٣ ــ ؛ من مخطوطة أيا صوفيا رقم ٣٠١١ .

وطال الحصار وجد الجيش الخوارزمي ان لا طاقة له بمقابلة جنكيزخان هربوا ليلا الا ان المغول ادركوهم وقتلوا جميع العسكر اما المدينة فلما خلت من الجند تفاوض اهلها وتضرعوا الى الخان ان يحقن دماءهم وقد وافق على ذلك بعد ان سلب الاهالي جميع ما يملكون ثم امر بحرق المدينة عن بكرة ابيها ففعل جنده وتشتت اهلها في جميع انحاء خراسان «١٢» .

ثم رحل عنها الى سمرقند في ربيع الاول من نفس السنة وحاصرها الا ان الجند قاوم الحصار بقوة ثم اجتمعت الاراء على مفاوضة المغول في الصلح فخرج قاضي البلد مع شيخ الاسلام للمفاوضة فاستقبلهم جنكيزخان ووافق على ان تفتح البلاد ابوابها الا انه رفض ان يؤمن الناس بل اعطى الامان للقاضي ولشيخ الاسلام ولمن يلوذ بهما من الناس . ولما فتحت البلد ابوابها دخلها المغول واخذوا يخرجون الناس ليلا مائة مائة ثم يقتلونهم خارج البلد الى الصباح وقد لاذ ٥٠ الفا من الناس بالقاضي وشيخ الاسلام فنجوا اما باقي السكان فقد قتلوا . وقد بلغ عدد القتلى حوالي ٦٠ الفا معظمهم من الشيوخ والاطفال «١٣»

ثم سار جنكيزخان الى مدينة خوارزم وهي عاصمة الخوارزمشاهية وحاصرها وفتحها . وكانت مقاومة اهلها عنيفة الى النهاية ولكن لم تجدهم نفعا بسبب كثرة المغول وضعف القوة المدافعة . فلما ملكها المغول احرقوا معظمها ثم اخرجوا سكانها جميعا وعزلوا الصناع والمحترفين ناحية وكان عددهم مائة الف ثم اسروا البنين والبنات والنساء اللواتي ينتفع بهن وقسموا الباقي من الرجال والنساء العجائز على المعسكر ليقتلوهم . فقتل كل واحد منهم اربعة وعشرين شخصا «١٤» وفي اوائل سنة ٦١٨هـ ١٢٢١م عبر جنكيزخان نهر جيحون وتوجه الى مدينة بلخ فخرج اليه اعيانها وبذلوا الهدايا العظيمة فلم يرض عنهم بسبب ان السلطان جلال الدين بن السلطان محمد خوارزمشاه كان في تلك

---

«١٢» ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ٤٠١ ـ ٨ . ط . بيروت ١٨٩٠ .

«١٣» المصدر السابق

«١٤» المصدر السابق ص ٤١٠ .

النواحي يهي اسباب الحرب ضد المغول فامر بخروج اهل بلخ الى العراء ليعدوهم كالعادة فلما خرجوا باسرهم «رمى فيهم السيف» اي قتلهم جميعا «١٥» ومن هناك توجه الى الطالقان وقتل اكثر اهلها واسر من صلح للاسر ثم توجه الى الباميان وحاصرها واتفق ان اصيب بعض اولاد جغتاي بسهم قتله وكان احب احفاد جنكيزخان اليه فعظمت المصيبة بذلك واضطربت النيران في قلوب المغول وجدوا في القتال الى ان فتحوها وقتلوا من فيها حتى الدواب والبقر والاجنة التي في بطون الحبالى ولم يأسروا منها احدا قطوتركوها ارضا قفرا ولم يسكنها احد بعد ذلك وسموها «ماد باليغ» اي قرية بؤس «١٦».

وكذلك فعلوا في مدينة الرى «١٧». ثم في مدينة مراغة «١٨». افلا يحق للناس ان يخافوا ويرتعدوا من مثل هذا الاسلوب القاسي في معاملة المدن المفتوحة عنوة او صلحا؟

والادهى والامر في الموضوع ان عاداتهم كانت اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من اسارى المسلمين بين ايديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوهم فكان هؤلاء الاسرى يقاتلون كرها وكان المغول يقاتلون من وراء الاسرى فيكون القتل في المسلمين وهم بنجوة منه «١٩».

وكانت نتيجة ذلك فتور الهمم وظهور الذلة على الناس حتى ان قسما من المأسورين لم يحاولوا الدفاع عن انفسهم لان الخوف والرعب من هذه الاساليب والاخبار قد طغت عليهم بشكل مفجع «٢٠» ويقول عنهم الموفق عبد اللطيف

---

«١٥» المصدر السابق ص ٤١٠ - ٤١١ .

«١٦» المصدر السابق ص ٤١١ - ٤١٢ .

«١٧» ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

«١٨» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

«١٩» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٧ .

«٢٠» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٧ . انظر كذلك : تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٩ .

البغدادي «٢١» . وكان معاصراً لغزوهم وقد اتصل بالعديد ممن هرب من غزوهم فاخبروه بأخبارهم بصورة مفصلة: «واذا اجتمعوا الى مجالس انسهم ونزهة قلوبهم احضروا قوما من الاسرى واخذوا يمثلون بواحد واحد بان يقطعوا عضواً بعد عضو وكلما اضطرب وصاح تضاحكوا واعجبوا وربما حطوا السيف في جوفه او ليته قليلا قليلا ومتى التمس الشخص رحمتهم ازدادوا قساوة واذا وقع لهم نساء فائقات في الحسن تمتعوا بهن اياما ثم قتلوهن . وحكت لي امراة بحلب انهم ذبحوا ولدها وشربوا الدم ثم ناء الذابح فقامت فذبحته وهربت هي وزوجها » . «٢٢»

وكان قد استولى الرعب والخذلان على الناس حتى «ان الانسان منهم يدخل الدرب فيه جماعة من الناس فيقتل واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع ولا يمد احدهم اليه يدا » «٢٣» نتيجة الرعب والخوف منهم.

والاقاصيص عن ماسيهم كثيرة وعلى الاخص ما صنعوه في مقاطعة خراسان ويصفهم الموفق عبد اللطيف فيقول «...والله - سبحانه - يحب العدل والعمارة ويأمر بهما وهؤلاء الملاعين «اي المغول» يبغضونها اذ لا دين لهم ولا عقل وكل حيوان ردى الخلق ففيه خلق آخر حميد كالكلب والخنزير والذئب والنمر وهؤلاء فقد جمعوا من كل حيوان ردى خلقه فاجتمعت فيهم الرداءات محضة «٢٤» حتى ان قسما من المسلمين اعتبر هذه الحادثة - اى حادثة غزو المغول للعالم الاسلامي - ماهي الا «قضاء الله المحكم لا يرد منه دعاء ولا حرب ولا مقاومة» «٢٥».

ولم تقصر هذه الفكرة على المسلمين فقط بل على اوربا كذلك وخاصة بعد

---

٢١ - انظر ترجمة الموفق في : الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٠ . السبكي . طبقات الشافعية - ٥ ص ١٣٢ ط . الحسينية . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ج ٥ ص ١٣٢ ط . القاهرة .

٢٢ - الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٠ .

٢٣ - انظر : ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٥١ ص . بيروت .

٢٤ - الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٦ ب - ٢٤٧ أ .

٢٥ - اليافعي . مرآة الجنان ج ٤ ص ٤١ - ٤٢ ط . حيدر اباد ١٣٣٨ هـ .

ان غمروا بولندا بجموعهم ودمروا خيراتها وكادوا يسيطرون على اوربا بكاملها ويغرقونها في الدماء فقد اعتبرهم الاوربيون قصاصا جديدا ابتلاهم به الله كما ابتلاهم باتيلا وقبائل الهون من قبل . «٢٦»

كما ان الرعب اجتاح الدولة البيزنطية من اكتساح المغول لروسيا ووصول جحافلهم الى حدودها في البلقان وآسيا الصغرى فانزعج الامبراطور يوحنا دوكاس « ١٢٢٤ - ١٢٥٤م » الذي امر باجراء التحصينات في سائر قلاع امبراطوريته وارتعب البيزنطيون وانتشرت بينهم الاشاعات القائله: بأن المغول هم بشر لهم رؤوس كلاب وانهم يأكلون اللحوم البشرية «٢٧» وقد عم الرعب اوربا من هذا الغزو بشكل يندر ان يوجد له مثيل في العصور الوسطى حتى ان صيادي السمك من فرنسا والبلاد المنخفضة لم يجرؤوا على ركوب البحر لصيد السمك حتى انه في السنوات التي غزوا فيها شرق اوربا لم يخرج اي اسطول من جزر شتلاند وفريزلاند لصيد سمك « الرنجة » بالقرب من بارموث مما كان له ابلغ الاثر على توفر هذا السمك بشكل كبير في انكلترا لان صياديها اغتنموا الفرصة واخذوا يصيدونه دون منافس فرخص سعره عندهم كثيراً «٢٨». ولا ابلغ من القول التالي نختم به مقالنا هذا بما كتبه المؤرخ D. O.HSSON في مؤلفه الكبير عن المغول . مع العلم ان هذا المؤرخ يعطف كثيراً على المغول في مؤلفه هذا . ولكن مع هذا قال عنهم : « لقد فاق المغول في قسوتهم اعتى البرابرة فقد كانوا يقتلون الناس بشكل جماعي وبدون رادع في الاقطار المفتوحة فقد كانوا يقتلون النساء والاطفال والشيوخ ويحرقون المدن ويحولون البلاد المزدهرة الى صحارى قاحلة على الرغم من انهم ما كانوا ليطفئوا غليل حقد ولا اخذاً بثأر لانهم ما كانوا ليعرفوا اسماء الاقوام التي ابادوها . وقد

---

٢٦- Eileen Power, Mediaeval People. P. 45. London. 1951.

٢٧- N. H. Howorth, History of the Mongols, part III. P.1. London 1888

٢٨- D'. O'Hsson, Histoir des Mongols, vol I, P. VII

نجد انفسنا مساقين الى اتهام المؤرخين الشرقيين بالمبالغة فيما اوردوه عن الغزو المغولي من ارتكاب فظائع وجرائم الا اننا يجب ان نؤكد بأن ما ورد في هذه التواريخ والحوليات قد ايدته الروايات الاوربية المدونة في غرب اوربا والتي في مجملها تؤيد ما دونه المؤرخون الشرقيون بطريقة مشابهة عما فعله المغول في جنوب شرقي اوربا عندما غزوها . فقد حطموا واستباحوا روسيا وبولندا والمجر ثم تقدموا الى سيليسيا وموراڤيا ودلماشيا » . «٢٩» وهكذا زرع المغول الخراب في كل مكان وطئوه ونشروا الرعب والخوف في نفس كل من سمع بهم وكانت اساليبهم العنيفة هذه خير سلاح لهم لارهاب الخصوم وتهيئة الاذهان لقدومهم . وهذا مما ساعدهم كثيراً على سرعة الاحتلال العسكري لمختلف البلاد التي نكبت بهم .

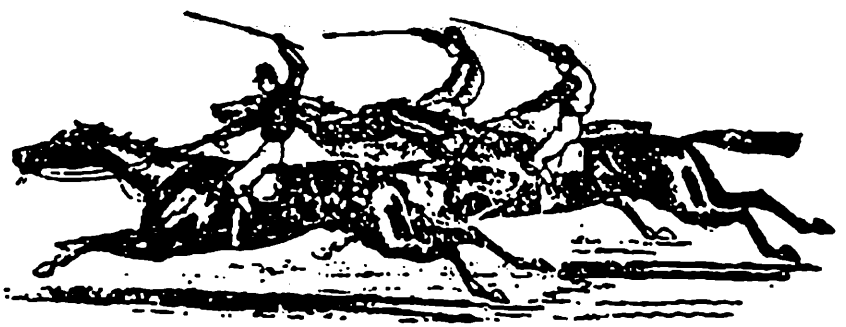

---

٢٩- المصدر السابق PP. VII, VIII وانظر كذلك :
Brown. Literary History af Persia. vol.III PP. 5-6 .